يحيى السماوي ، بين العدميّةِ والآيروتيك

(1)

هــاتف بشبوش

يحيى ، رمزُ صبانا ونشاطنا الثوري ، هو ذلك الشاعر الذي بدأ كأسطورةٍ سماوية تتناقلها الألسن منذ السبعينيات وديوانه الأول (عيناك دنيا 1970) ، حتى أكمل ديوانه الخامس والعشرين (أنقذتِني مني) ، وحتى تأطر بأحزان (جبران خليل جبران) قبل أشهرٍ قليلةٍ حين نال الجائزة الجبرانية العالمية الكبيرة في إستراليا . كل قصائد الشاعر يحيى لاتحتجب وراء الستار، بل كلها موصوفة على مقاساتنا نحن البؤساء في أغلب الأحيان والسعداء قليلا بما يكرم علينا الزمن بين الفينة والأخرى ، شاعرّ له من الطاقة الموضوعية والأخلاقية التي تجعله مصراً على المضيّ قدما في رسم ذلك النهج ، الذي يساهم في حلحلة تعقيدات الحياة ، نستطيع من خلال نصوصه أنْ نستعرض خلفية شاعر كبير على غرار نجوم الشعر الكبار في العالم .عمودياً أولاً ، ناثراً ، كتب بالسونيتات والرباعيات ، في أغلب أعماله نرى الثورة والشعر ، يكتب بالأسلوب البانورامي الثابت منذ أول شقائه وحتى اليوم ، والذي سوف يستمر صوب العمر المديد . نراه يتجه الى الإنسانية المعذبة ، الى الطبقة العاملة التي تئنّ تحت غول رأس المال .

وأنا أقرأ يحيى ، أجده كبيراً متميزاً بين آلاف الشعراء شرقيّهم وغربيّهم ، يمتلك من التقنية المذهلة في التوصيف ، لا أجد مألوفا ولا روتينا ولا غثيانا في أغلب أشعاره ، سوى تواجد العصارة الشعرية أمام الرائي . الشاعر يحيى وهو في قمة أحزانه يرقبُ على الدوام تغييرا جديداً مثلما تقول فرجينيا وولف (أرقبُ على الدوام

عصراً قادماً ، أرقبُ الجشع ، أرقبُ قنوطي الخاص ، أصرّ على أنْ أمضي هذا الوقت ، في عمل أفضل الغايات) . كل قصائد يحي السياسية أدّت مهامها كما كان يبتغيه ،كما وأنه إجتهد كثيرا وكافح كثيراً ، حتى حصل على هذه الشهرة المميزة ، والأكثر إمكانية تأثيراً على مشاعر الآخرين . يحيى لا يكتب شعراً مكبوتا بل واقعياً شديداً لدرجة خلق الصدمة لدى المتلقي ولدرجة أنْ تكون أغلب قصائده لكمة بوجه المجرمين والمتحكمين . يحيى يكتب المحتوى والشكل ، العاطفة والإحساس،الإلحاح والتعمديّة في فضح المستور والتأشير بشكلٍ علني على من هم في قائمة السفلة والمنحطين والمراوغين . يحيى السماوي وفي صلب هذه الأحداث اليوم وكأنه يقول لنا ما قاله كزانتزاكيس قبل مئة عام حول عقيدة العصر الإنتقالي (إنّ مشكلة عصرنا تكمن في أنه قد أمسكَ بنا من الوسط) ، فقد فقدنا تقديرنا العفوي لجمال هذا العالم من جهة وفقدنا إيماننا بالسماوات العلى من جهة أخرى ، وهكذا لا نستطيع أنْ نكون وثنيين لأنّ المتأسلمين سمّموا نظرتنا الى الأشياء المادية ، ولا نستطيع أن نكونْ متأسلمين ، لأنَّ الدواعش سمَّموا نظرتنا الى الأسلام والمتأسلمين والعالم الروحي الكامل والذي كان هو الأساس في السلوك الإسلامي ، وهكذا نحنُ ضحايا العصر الإنتقالي ، الذي تطرّق له كزانتزاكيس خصوصا في الفترة الداروينية التي أثرت كثيراً على مفاهيم المسيحية.

أما حين نقرأ الشاعر في غزلياته ، نجد أنفسنا في فردوسٍ من التفاصيل ، صغيرها وعظيمها ، والتي تشكل كل الجمالات التي نراها ونحن نطرق مداخل هذا الفردوس : مثل النظرة الأولى ، القدرية في الحب ، القلوب حين تفتقد شيئاً ، الإلتفاتة ، ماذا نفعل حيال الحب ، وصف الحبيب ، تبادل النظرات ، تقابل الطرق ، العفوية في اللقاءات ، الندم ، الجرأة ، المراقبة ، التحديق ، الإنجذاب ، التعلق ، تبلّد الشعور ، السأم ، العذل ، عظمة القلق ، اللواعج ، وكل ما عرفناه وما لم نعرفه عن الجنس اللطيف وما يخبئهُ تحت طيّات الحرير.

النجاح الهائل لأغلب أعماله يعزى لكونه يمتلك القدرة على صهر المعرفيات في القصيدة التي تتشكل بين ما هو خاص وعام ، كما وأنه قادر على إستخراج الصرخة التي نادى بها (برجستون) ، ألا وهي صرخة (إله الحق) التي جاءت كحلٍ وسط بين الوثنية والمسيحية والإسلام ، لنرَ الشاعر كيف إستخرج تلك الصرخة من خلال نصه الموسوم (الآمرون بالوطن الحر والشعب السعيد) .....

بسطاء كثيابِ أبي ذرّ الغفاري

خِفافٌ كحصان عروةَ بن الورد

يكرهون الإستغلال كراهة الشجرة للفأس

ويحبون العدالة حبَّ العشبِ للربيع...

سيماؤهم في أيديهم من أثر البياض

وحيثما ساروا تنهض المحبةُ من سُباتِها!

عِطرُهم عرقُ الجباه ...

ومثل تنّورٍ يمنحُ خبزهُ للجائع مُكتفياً برماده

يقولون : خذوا

ولا ثمة في قاموسِهم كلمة أعطِني!

لهم من المطرقةِ الصّلابة

ومن المنجلِ حِدَّته

ومن الحمامةِ هديلُ الدولاب!

منذ إحدى وثمانين دورة شمس

وهم يُعبِّدون بأضلاعهم طريق القافلة

نحو المدينة الإنسان!

هنا تميل علينا اللغة هفهافة مزينة بكل تلاوين الدهشة التي قفزت علينا من عنوان النص اللذيذ والشافي لدواملنا, وبنفس الوقت هو عنوان يحمل المقدس المطواع والذي لا يشكل أية مفارقة لو شرحناه من بابٍ آخر , شاعر كبير لديه القدرة الفائقة على أنْ يقتبس من المقدس ويجعله في خانة من هم على دروب المادية والديالكتيك ، دون أنْ يسيء ، بل هو أبرز لنا المفاهيم الآخرى من المقدسات لو إستطعنا توظيفها في المكان الصحيح وهذه كلها تعتمد على الفطحلة اللغوية التي يمتلكها الشاعر ومدرس اللغة العربية أيام زمان ، الفطحلة التي تستطيع أنْ تشكل (المعاني مطروحة في الطريق...الجاحظ) . محمود درويش في يوم إستخدم المسيح في إحدى قصائده وراح يشرح من خلال النص ، المعنى الذي يريده لكي ينال من الأكليروس والشوفينية الدينية

التي على غرار ما نراها اليوم في التصرف السعودي ضد اليمن . محمود درويش سألوه لماذا استخمدت المسيحية في شرح ما تريده ، فقال إنّ المسيحية هي ديانة مطاطة تستطيع أنْ تفعل بها ما تشاء دون أنْ تتعرض للأذى ، عكس ما تجلبه لي ديانة آبائي وأجدادي فيما لو تعرضتُ لهم حتى وإنْ كان بالسداد والموفقية . حتى لو قلتُ ، أنا أشيد بالآمرين بالمعروف والنهي عن المنكر . عنوانُ نصٍ رائع فيه الكثير من الجاذبية ، عنوان نستطيع من خلاله أنْ نكتفي بما يأتي ما وراء القصيد ، ولكن حالما تقع أعيننا على أبي ذر الغفاري ، ثم عروة بن الورد ملك الصعاليك ، لا نستطيع سوى أنْ نكون ملزمين في إنشاء إنشودتنا الخالدة عن الفقراء والمساكين . نص عدو للكراهية ، صديق للعدالة ، كارها للفأس مثلما الشجر الباسق ، نص ربيعي وجاء بمناسبة العيد الحادي والثمانين لميلاد الحزب الشيوعي العراقي ، وقد كتب فعلا في آذار (عشب , شجر , ربيع , حمام ,) كلها مدلولات الربيع الصافية صفاء الأيدي البيضاء التي لم تسرق ، بل وليس لديها الجرأة على السرقة مهما كلّف الأمر . نص من خلاله كنتُ أبحث عن نفسي ، وحاولت ، فلم أجد ، غير أنني بين فراغات أسطر هذه الأبيات الرائعة ، نص يقودني مع جوقة الآمرين بالوطن الحر ، نص صارخ لا يحمل المتشابهات كالظلام والصمت ، يعطيني الذريعة في أنْ أكابد وأكابد حدّ اللهاث في أنْ أصل الى المدينة الإنسان ، نص يجعلني مثل (هيلين) وهي تسبح في ماء الخلود تنتظر (زيوس) على مركبٍ هائم ، نص من خلاله لا يستطيع المرء سوى أنْ يرسلَ عبر الأثير إحدى وثمانين قبلة لجبين الشاعر الخالد ، نص سيظلّ صداه عبر الأجيال ، إنه الصدى الذي يرجع منادياً صارخاً بحق الجياع ، قولاً وفعلاً كما نقرأ في النص أدناه (رجعُ صدى):

قال الجائع : القمر جميل...

لكنّ رغيفَ الخبز أجمل!

وما نفع القمر الجميل لشاري شابلن في أحد افلامه (البحث عن الذهب) وهو جائع وفقير مدقع فيضطر أنْ يأكل قيطان حذائه وكأنه نوع من أنواع السباكيتي الفاخرة ، وما فائدة القمر الجميل بالنسبة لامرأةٍ صومالية في مقاديشو وقد عرضت قبل أيام من على شاشات التلفزيون وهي تنتقي غذاءها المفضل من أحد أكوام المزابل . وما فائدة النجم القطبي الجميل بالنسبة الى روبن هود إذا لم يسرق من الأثرياء كي يستطيع إطعام الفقراء من لذيذ الرغيف ، وما فائدة القمر الجميل بالنسبة لبائعة الخبز في الرواية العالمية الشهيرة الرائعة . وما فائدة القمر الجميل بالنسبة لتلك الأميرة التي يقال أنها طلبت من الآلهة أنْ يتحول كل شيء تمسكه الى ذهبٍ خالص ، فاستجابت لها الآلهة ، مسكت المشط لكي ترتب شعرها الطويل فتحول الى ذهب خالص ، مسكت الوردة الحمراء ذات الرائحة الطيبة كي تزين بها كتفها فتحولت الى ذهب خالص ، مسكت مظلة المطر لكي تأخذ جولتها الأميرية في المدينة الصاخبة فتحولت الى ذهب خالص ، وبعد التعب والإعياء من الراحة والإستجمام شعرت بالجوع وأرادت ن تأكل فلم تفكر سوى بالرغيف في بادئ الأمر . إنّ الحكاية هذه تضرب للموعظة ، فلم تفكر بالفاكهة أو الحلوى ، الرغيف هو رمز الحياة ، هو صانع الحياة وديمومتها ، هو حلم الجائع على الدوام . فلما مسكت الأميرة قطعة الرغيف تحولت الى ذهبٍ خالص ، وضعتها على أسنانها فتكسرت أسنانها ، وهكذا مضى الحال معها حتى ماتت من الجوع ،فما نفع القمر الجميل بالنسبة للأميرة هذه لو مسكته وتحول

الى قمرٍ من الذهب الخالص وهي لم تستطع تذوق الرغيف إكسير الحياة . مسكُ الرغيف يعني الواقع الأخضر ، بينما مسك القمر الجميل هو الحلم البعيد المنال ، هو النظرية الجدباء ، فتحيتي للشاعر القدير والى موسيقاه الشعريةِ التي لا تنضب ، مثلما نطربُ في المعاني المطريّةِ للسطور أدناه :

حلمتُ يوماً أنني ربابة ْ

وكان ما بيني وبين معزفي

حنجرةٌ تنهلُ من بحيرةِ الكآبة ْ

وحينما استيقظتُ

سال الضوءُ من أصابعي

وأمطرتْ حديقتي سحابة ْ

من يحلم بالموسيقى ، عليه أنْ يحذر من أنْ يكون إسطورة ، على غرار إسطورة أورفيوس الشهيرة ، ذلك الموسيقي المعروف الذي كان يغني للحيوانات حد الإفتتان ، هذا الساحر الفنان إستخدم موسيقاه كي يلهي بها حرس العالم السفلي والآلهة كي يستطيع إنقاذ حبيبته (اورديشي) من الموت ، لكنه لم ينفّذ شرط الآلهة والأشباح في آخر المشوار وخرج وحيدا تاركا حبيبته هناك ، ثم القصة المعروفة لنهايته على أيدي النساء لتركه

الموسيقى فمزقن أشلاءه . وهناك من يحلم بالموسيقى على غرار كاظم الساهر فإنه سيكون ملكا لزمانه ، هكذا هي الحظوظ والأقدار، لكن شاعرنا الكبير يحيى السماوي لم يتحقق حلمه في أنْ يكون موسيقيا عازفا للربابة ، فحينما إستيقظ وجد نفسه ذلك الشاعر العملاق الذي تنسال من أصابعه أنهر وبحار من الكلمات ، بل أضواء وأقمار تنير الدروب الحالكة ، وجد نفسه لا يعرف سوى أنْ يكون شاعرا ، لأنها هويته وموهبته ولربما حرفته النهائية حتى إنقضاء هذا الكون ، وجد نفسه أديبا شاطرا في البوح ، ذكيا في رسم الصور الكلماتية الخلابة التي تسحر القلوب فتية وفتيات ، وجد نفسه في معترك الحروف ، وعليه أنْ يفضّ نزاع هذا المعترك بأصابعه الذهبية المعطاء ، وجد نفسه حديقة تمطر وابلا من الكلمات ، وجد قلبه عاشقا هائما في تيه اللغة وسحر البيان ، وعليه العزف بالكلمات لا بالموسيقى والألحان ، فالألحان من مهمة الموسيقي ، لا الشاعر ، الموسيقي الذي يلحن مايكتبه الشعراء الكبار على غرار شاعرنا مدار البحث هذا. يحيى ذلك الرجل الشفيف الذي يعرفُ جيداً أين يمطر ، كي يخضرّ الوجود الذي حواليه ، كي تنتصب السنابل ، لنأكلَ الرغيفَ النعيم ، لا الرغيف الزقوم الذي نأكله اليوم بسبب رجال الساسة في بلدنا كما حدّثنا عنهم شاعرنا في رباعيته التهكميةِ الخشنةِ أدناه:

سِـــيّانِ عـنـدي جَنَّـةٌ وجـحـيـمُ

إنْ قـد تـســاوى نـاسِــكٌ وأثـيـمُ

مانفعُ ضوءِ الشمس إنْ كان الـدُّجى

في القلبِ ؟ أو أنّ الـضميرَ هـشـيـمُ ؟

السّاسةُ التجّارُ أصلُ شقائِنا

فهمُ الرّزيئةُ والغدُ المشؤومُ

إنْ لم نُطِحْ بالمُتخَمِينَ فيومُنا

داجي الضحى ورغيفنا زقُّومُ

ومانفع الساسة ممن ينتمون الى علم ودستور ومجلس أمة كل عن المعنى الصحيح محرف (الرصافي) ، وما طعم الساسة إنْ كانوا من القتلة الدواعش ، وماهو حجم جيوبهم وهم سرّاق ، وما هي بقاياهم انْ فضحناهم ورحلوا عن ديارنا . الشاعر يحيى لا يداهن ، لكنه ذلك الناسك الذي يكره كل ما يشير الى الغلو والعلو الناجم عن الفراغ ، هو ذلك العراقي البسيط كبساطة نهرينا مثلما نقرؤه في النص أدناه (رصيف ونهر):

أنْ أكون رصِيفاً ناعماً يعبرُهُ الحفاةُ

أو سفحاً مُطرّزاً بالشجر

خيرٌ لي من أنْ أكون

قِمَّةً تبني فيها النسورُ أعشاشها

*

النـهرُ يُحِبُّ الـوديـانَ

ويـكـرهُ الـقِـمـم!

الرصيفُ يعطينا تأريخً جميع من مرّوا فوق أرصفة التراب في الأزمنة القديمة ، أو فوق الإسفلت في الزمان الحديث ، جميع تأريخ السابلة حفاتها ومنتعليها ، وشاعرنا يحيى يحب حفاتها ، على غرار كونفوشيوس العظيم الذي يقول (كنتُ أحسد من يمتلك حذاءً , حتى رأيت رجلاً بلا قدمين) ، الرصيف هو رمز الوداعة والإئتمان ، الرصيف هو المضي قدما ، الرصيف هو المستقبل الواعد ، هو الموعد في المكان الفلاني ، هو أنا وأنت حينما نريد العبور منه الى الضفة الأخرى . أما السفوح ، فهي بالضبط تلك التي رأيتها قبل أيام في فيلم جميل يحملُ عنوان (تشي) أي تشي جيفارا ، إنتاج عام 2014 ومن تمثيل البارع (بينسيو ديل تورو) في دور الثائر تشي جيفارا والحسناء (جوليا أموند) ، هذا الفلم يحكي قصة جيفارا الثائر الذي مضى على موته أكثر من خمسة وأربعين عاما ولا زالت السينما العالمية تتناول حياته وذكراه ، في هذا الفلم رأيتُ كيف كانت تلك السفوح التي تكلّم عنها الشاعر يحيى في نصه أعلاه ، مليئة بالأشجار البوليفية الباسقة حيث كان جيفارا يتفيأ تحتها ويرسل من خلالها أجمل رسائله ووصاياه الى أكبر الكتاب والمبدعين في العالم ومنهم جان بول سارتر وبرتراند راسل . تلك السفوح التي كان يحيّيها الكبير الجواهري في رائعته (حييت سفحك عن بعدٍ فحييني) . أما القمم بتعبيرها الرمزي فهي (القمم الشماء) ، أما شرّها مثل ما حصل مع قمة جبال الألب وارتطام الطائرة الألمانية

قبل أيام ،التي مات فيها مائة وخمسون راكب .أما النهر هو الماء وكل ما يحتويه من الحياة ، النهر هو الذي يشكل الهيولي القادم من الأزل صوب الأبدية ، النهر الذي نقرؤه في كل الإبداعات للكبار وللمرموقين ، وكيف اتخذ لممارسة الطقوس الخاصة بالأقوام والإستحمام به لغرض تطهير النفس على غرار ما يستخدمه المندائيون في العراق . أو ما قاله أحد القدماء (لا يمكن للمرء أنْ يستحم في نفس النهر مرتين) . هذا هو الشاعر الكبير حينما يصدح مع النجوم ، نراه بكل سراجه محباً خالصاً ، يتماهى مع الخصوصيات التي ينظر لها من جانبٍ آخر ، والتي خطّت لنا إبداعه الصادم فينا من خلال الجوهرة أدناه ، حيث يوجه صفعاته للمجرمين (حب من نوع خاص):

يـتـهـمـنـي الـبـعـض بـأنـنـي أكـره جـمـيـعَ الـدّواعش..

هـذا غـيـرُ صـحـيـح

فـأنـا أحِـبُّ الـدّاعـشـيَّ حـيـن يـتـدحـرجُ رأسُــهُ عـلـى الأرض..

وأحـبُّـه أكـثـرَ حـيـن يُـحـرقُ وتـكـنـسُ الـريـاحُ رمـاده!

لو تسنى للشاعر يحيى و لكم أيها القراء ، أنْ تروا فيلم (زورو) من تمثيل الشاب الأسباني المحبوب (أنطونيو باندرياس) والبارع العجوز المجنون (أنتوني هوبكنز) ، بالمختصر المفيد : البطلان في الفلم يعملان سوية

ويتدربان لسنين طويلة لكي يأخذوا ثأرهم من الطاغية الجبار الذي لم يترك رجلا وطفلا الاّ وقتله . وفي يوم قبض على أنطونيو باندرياس وقدم له رأس أخيه محنطا في دورق ، وفي يوم آخر قتل زوجة أنتونيو هوبكنز وسرق ابنته وأدخله السجن لعشرين عاما حتى إستطاع الهروب ، ناهيك عن السجون التي أمتلئت بسببه ، فلابد أنْ يكون للانتقام والثأر طعم آخر بحق هذا المجرم . في نهاية الفلم (زورو) تتحقق أمنياتنا كمشاهدين ، حيث أننا نفرح لإنتصار البطل ، وتتحقق أمنية البطلين (باندرياس والعجوز هوبكنز) وبالشكل الذي يثلج القلب ، مثلما نقرأ أمنية الشاعر أعلاه وحبه في دحرجة رؤوس الدواعش ، السطور أعلاه ، لا تعني حب الإنتقام ، ولا التمثيل ، بل هي إرادة الأبطال أمام شعوبهم ، أمام ما تعاهدوا عليه كما في هذا الفلم ، حيث أنّ الثائرين (باندرياس وهوبكنز) يمسكان بالمجرم الطاغية في أعلى الناصية ، وفي لقطةٍ مثيرة للغاية حيث أنّ السجناء يُطلق سراحهم كما في الإنتفاضة العراقية لعام 1991 ويتجمعون مطالبين الثأر .. أسفل الناصية الثائران أرادا قتل الطاغية ، لكنهما بدلا من ذلك دحرجاه هو ورأسه الى الشعب الذي تلاقفه في حالةٍ يحبها قلبي وقلبك أيها القارئ وقلب الشاعر وقلوب الآخرين الذين لاقوا ما لاقوه من أمثال هذا الطاغية المجرم ، دحرجاه بين مئات المظلومين والمُطلق سراحهم للتو ، المنتظرين لهذه اللحظة الحاسمة التي لابد لها أنْ تحصل ، يموت المجرم الطاغية من الضرب ومن اللكمات أولا ، ومن البصاق ثانيةً ، ولم يلحق أنْ تكنس الريح رماده ، بل الأيادي البيضاء والسواعد السمر هي من كنسته الى مزبلة التأريخ ، وينتهي الفلم بكتابة بطل الفلم أنطونيو، بالسيف وبلون أحمر وعلى طول شاشة الفن السابع ، بكتابة إسم الثائر (زورو) . ولكم تمنينا أنْ ينتهي صدام بمثل هذه النهاية ، لكنها أيها القارئ ، الحظوظ العاثرة للعراقيين وتلك الريح التي تأتي بما لا تشتهي السفنُ .

من خلال هذا الفلم ، هل هناك مبرر لحقوق الإنسان لاحترام مثل هكذا مجرم ، حقوق الإنسان الذي تجعل الرئيس العراقي الحالي يمتنع عن إعدام القتلة الدواعش ، حقوق الإنسان التي تتكلم عنها أمريكا وهي نفسها لا تحترم الإنسان ، تريد من العراق الغاء عقوبة الإعدام وهي تعمل بها حتى اليوم ، وهناك سلسلة رائعة يكتبها هذه الأيام المبدع حسين سرمك حول أمريكا بعنوان (لا تثقوا بالولايات المتحدة) حيث فضح أمريكا وألاعيبها بهذا الخصوص ، وكيف كانت تعدم ألأطفال الفيتناميين ، وغيرذلك من إجرامها المعروف للقاصي والداني في كثير من أمصار هذا الكون المترامي . أمريكا تلك الأرض المكروهة من قبل الكثيرين ،(الكاتب البرتغالي العظيم ساماراغو ، عندما وقع من يده كوب الماء ، حين ذكروا له اسم امريكا ووقاحتها أثناء لقاءٍ صحفي ، فقال حمدا لله أنه كوب ماء وليس كوب القهوة الساخن ، فقال له الصحفي ، لعمري أنّ هذا غاية في التفاؤل). وبخصوص هذا الموضوع قد كتب الشاعر من جميل إبداعه ضدّ عدوّة الشعوب أمريكا وماتدعيه من إحترام لحقوق الإنسان ، تلك الإدعاءات المزيفة والكاذبة على مر الدهور:

أيها الربّ الرخامي المنتصب كالمشنقة

ليس مشعلا للحرية ماترفعه

إخفض يدك

فالبنتاغون يراه فتيلا لإحراق حقول العالم

والـ " سي آي إيه " تراه سيفا

لإستئصال رقاب مَنْ يرفض الإنحناء لآلهة المعبد الأسود في واشنطن

الشاعر يحيى يبدو لنا واضحا من خلال ألنصوص أعلاه بأنهُ من مناصري الفئات المعدومة من بني البشر ، من مؤازري القضية الإنسانية العادلة ، إنه الشاعر الذي لايموت ، الذي يحيا مع الإخلاص والوفاء المطلق لكل ما هو صادق ، كما وأنه الشاعر الصدوق مثلما نقرأ في النص السرمدي والملحمي والمهدى الى صديقه الشاعر (هاتف بشبوش) ، نص (أنا لستُ كلكامش ...لكنك أنكيدو):

-

أنا لستُ كلكامش ... لكنك أنكيدو

"الى صديقي الشاعر هاتف بشبوش"

مثلَ راعٍ صغير

أقودُ قطيعَ أحلامي مُتبتِّلاً...

أنشُّ بمزماري ذئابَ الوحشة

وأستلُّ أضلاعي قصيدةً قصيدة

لأعبِّدَ الطريقَ لقدَميها الحافيتين

****

وكما يحتضِنُ طفلٌ يتيمٌ دُميتهُ الوحيدة:

تُطبِقُ صَدَفَةُ رجولتي على لؤلؤةِ أنوثتِها

خوفاً عليها مني!

****

ومثلَ راعٍ صغير

يقودُ قطيعُ القُبُلاتِ فمي

عائداً من مرعى شفتيها نحوَ واديها المقدَّس

لأبُلَّ عطشي بندى زهرة اللوز...

فأغفو على سرير نخلةٍ مُتدثّرا بحرير غيمة

وسادتي هديلُ حمامتِها

****

أنـا لـستُ " يـوسفَ... "

فـلـمـاذا أحـلـمُ بـبـئـرٍ أسـقـط فـيـه ؟

ألـكـي تـضـفـرَ لـي مـن جـدائـِلِـهـا حَـبلا ؟

أم لأعـرفَ أنّ لـي أخـوةً أعـدّوا الـدّمـوع طـمـعـاً بـالـمـيـراث ؟

لـيـس لأبـي مـن الـقـطـيـعِ إلاّ الـرَّوث والــبـعـر...

وأنـا لـيـس لـي غـيـر ضـلـعٍ ثـقَّـبَـتْـهُ الأيـامُ فـصـار مـزمـارا!

ولـي مـن الـوطـن : الـتـرابُ الـعـالـقُ بـحِـذائـي!

****

يـا هـاتـف:

أنـا لـستُ كـلـكـامـش...

لـكـنـكَ أنـكـيـدو!

أنا أعرف متى كُتبت هذه الشذرات الفضية الملحمية .. كتبت في لحظةٍ كانت فيها الحروف كلها عارية وما من مدثرٍ لها ، عارية ربُّها ما خلقها ، وصافية مثل صفاء قدميها الحافيتين ، أو مثل ذلك الرجل الذي زرع الأمل في قلب كونفوشيوس (الرجل الذي بلا قدمين) ، نصُّ ثلثاه جاءا على السليقة الحقيقية التي لا تتكرر الاّ في ماندر ، ثلثاه إلهياً على تركيبة جلجامش ، والثلث الباقي جاء بكاءً ذارفاً للدمع على فراش أنكيدو وهو البشريّ المريض والعليل والذي ترك بموته الحلقة الكاملة عن الملحمة التي كتب عنها التأريخ بما قرأناه وما لم نلحق أنْ نقرأه , وبما سمعناه من معزوفات آخرها معزوفة الموسيقي الدنماركي (بير نورد) والتي سماها معزوفة كلكامش. فكيف لي أنْ لا أطرب على مثل هذه النصوص التي ما إنْ أفتح أزرار الفيس بوك وفي الساعة العاشرة ليلا حتى أجدهُ أمامي ماثلاً يصيح بي إنهض لصديقك الخالد (يحيى) الذي يمسك مزماره ماشيا على طريق الحجّ الى بتهوفن عازفا بأضلعه كل ماكتبه في النبوغ الشعري لكنه يرفض في اللحن أنْ يكون كلكامشياً ، أنه ذلك الذي أخذ بنصائح سيدوري وظل يشبع أطفاله ويكسوهم جيدا ويكون مبتسما الى زوجه ، ويملأ كرشه ، هذا ما سوف يأخذه من الحياة لا غير . بل هو الراعي في رائعة كزانتزاكيس (المسيح يصلب من جديد) وقولته الشهيرة (واجبنا أنْ نقف أمام الهاوية بكبرياء) مثلما وقفها البطل الخالد الشهيد الشيوعي إبن السماوة البار (ابو ظفر) . أبو ظفر أيضا كان في يوم ما طفلا وله الكثير من الدمى ، ويا ما ويا ما كان يحاول أنْ يدخل تلك الحوارية الجميلة بين العمالقة والمشاهير (ميكي موتو) صانع اللؤلؤ الياباني وأديسون مخترع الضوء ، حيث يقول ميكي موتو الى أديسون : أنت أضأتَ العالم ، فيقول له أديسون : وأنت أضأت أعناق النساء بصنعك هذه اللألئ يا ميكو ، فيبكي الإثنان بكاءَ حقيقياً أبكى الجالسين حولهم . كلٌّ له دوره في الحياة كما الطفلة اليتيمة التي ذاقت الأمرّين في البؤساء عظمة فيكتور هيجو ، حتى أنقذها البطل جان فاليجان وكان

الذي كان ، وعاشت الحياة المراد لها أنْ تعيشها بعد يتمٍ وفقر حتى حصلت على راعٍ لها (زوج) يقود قطيع القبلات ، ومن لا يقبل بهذه المهنة التي ترفل بالهناء ! لله در الكبير شاعرنا يحيى على إختراع هذه المهنة المغناج ، وحينما يعود مساءً من المراح ، يكون الليل قد حط أول بشائره ، يعود الراعي الى تلك الأمكنة التي من يدخلها لابد أنْ يسقط عليها كسقوط الندى ، يلجها حينما يهجع السامرون وهي تهمس في أذنيه على مهلك حبيبي فإنّ شفتيك على مقربةٍ من اللحم المعافى ، اللحم الذي أثار في الرسام العالمي ايغون شلي شبقاً وفناً ، فكان يجثو على طرف السرير يقود قطيع القبلات ، بينما هي ترفع علامة الإنتصار بفخذيها . هنا الراعي لا يحلم ، بل هو في البيدر يحصد كل ما جناه . وحينما يحلم فإنه يحب الحلم النابض بالحياة لا الحلم المنتحر . لا أصيّر نفسي يوسف ، دع الحياة كما هي ، إذا أرادتني أنْ اكون يوسف فبها ، مثلما حصل للشاعر يحيى في حقيقة الحياة لا بحلمها ، وأنا أتذكر قصته مع أحد أصدقائه (وهو بمثابة الأخ) حينما أودعه وإئتمنه على ماله في زمن الطاغية صدام ، وحينما عاد يحيى الى الوطن ، لم يجد غير الهباء والطعن بالسكين ، إنها الأخوّة اليوسفيّة التي لا يرجوها الشاعر يحيى . بل هو الشاعر المنخليّ (المنخل اليشكري) وفتاه الخدر ، فهو تارة رب الخورنق والسدير ، وتارة رب الشويهة والبعير . هو ذلك الشاعر الذي له الضلع المثقوب ، حتى صار أداة موسيقية كما الناي يفيض به أحزانه ، كما القول الدارمي (متعجب بدنياك نص كلبك زروف / شو كًلبي منخل صار بيه العمى يشوف) . إنه الشاعر الذي لا يملك غير حذاء البدوي الأحمر " محمد الماغوط " : (لا يربطني بهذه الآرض سوى حذائي) . إنه الشاعر الذي يعيش الجدلية الأزلية المترابطة التي لا يمكن لها أنْ تنفصل حتى لو أراد هو ، حتى لو أسس في هذين البيتين الأخيرين واللذين اختتم بهما شذراته الرائعة ، البيتين الحمّالين من المعنى الكبير (يا هاتف : أنا لست كلكامش ، لكنك أنكيدو) ، وهل يمكن لكلكامش أنْ يعيش بدون

أنكيدو ؟ وهل يمكن لنا أنْ نتكلم عن الملحمة الأسطورية بدون ذكر التوأمين السياميين اللذين لا يمكن لهما الإنفصال (كلكامش وأنكيدو) لا يمكن لنا أنْ نعيش الليل دون المرور بالنهار ، لا يمكن لنا أنْ نتنفس دون انْ نشهق ، لا يمكن لنا انْ نحيا دون انْ نموت ، لا يمكن لنا أنْ نعرف الأسود دون معرفة البياض ، البياض الذي عاشه بمرارة الشاعر الراحل أمل دنقل وهو على فراش الموت في المستشفى ولون البياض الذي أصبح كئيبا عليه ، من الشراشف الى الحيطان . وهكذا هي الجدلية المترابطة التي رسمها لنا الكبير يحيى ، وأنا بدوري كاتب المقال اقول : / أنا لست أمسَكَ ، بل أنت غدي / أنا لست شمسَك ، بل أنت قمري ، أنت المعرّف والمعروف وأنت الشلاّل القادم من جموع البائسين كما نقرؤك في هذه الروائع التعريفية المنحوتة على الجبين من المنحوتات الفضية (تعاريف).....

يتبــع في الجـزء الثاني

عراق/ دنمارك